

مناهج وآليات فهم النص القرآني عند محمد أركون وأثر الاستشراق فيها

أ.م.د. خولة مهدي الجراح

الباحث كاظم جواد كاظم

كلية الفقه/ جامعة الكوفة

المقدمة:

في فترة الستينات، زاد الاحتكاك بين الشرق والغرب، وبسبب تردّي الأوضاع في المجتمع الإسلامي من جهة، والتطور العلمي الغربي من جهة أخرى، برزت فئات من داخل البيئة الإسلامية انبهرت من التطور الغربي وما وصل إليه، ودعت إلى الإفادة من منجزاته، وكان مركز الاهتمام هو القرآن الكريم؛ لأنه يمثل النصّ الرئيس للأمة الإسلامية.

من بين تلك الفئات ظهرت شخصيات عربية حديثة دعت إلى القطيعة مع التراث، وسعت إلى تطبيق المناهج التي توصّل إليها الغرب في فهم النصوص الدينية على مجمل الخطاب القرآني، وقامت بنقد الآليات التي وضعها المسلمون لفهم النصّ القرآني، كأصول التفسير وقواعده، وعلوم القرآن، وغيرها، ودعت إلى ضرورة استبدالها بمناهج غربية بحجة أنّ الأصول الإسلامية هي السبب في التخلف الذي تعيشه الأمة.

إنّ الشخصيات الحديثة لم تدعُ إلى القطيعة مع التراث الإسلامي المُفسّر للنصّ الأول، بل دعت إلى العمل على النصّ القرآني نفسه، وعَلّلت سبب تلك الدعوى بأنّ النصّ القرآني هو محور الحضارة الإسلامية، فلا بدّ أن تتعدّد تفسيراته وتأويلاته، وأيضاً لا بدّ من تنوّع الآليات المنهجية المتبعة في فهم نصوصه. إنّ القول بإمكانية تعدّد التفسير والتأويل لآيات القرآن الكريم شجّع الحداثيين على محاولة تجديد آليات التفسير والتأويل من خلال محاولة تطبيق الآليات الغربية المطبقة على النصوص الدينية في الغرب، والتي - بحسب قول الحداثيين - ساعدت على الوصول لفهم متقدّم ومتطور لتلك النصوص.

من بين تلك المشاريع الحديثة برز مشروع الجزائري محمد أركون، إذ دعا بشكل واضح وصريح إلى ضرورة إخضاع النص القرآني للمناهج الغربية المعاصرة. ويعدّ مشروع محمد أركون من المشاريع الحديثة؛ وذلك لأنه قام بتوظيف منجزات الحداثة الغربية في فهم النصوص الدينية، والإفادة من مناهجها، وآلياتها، وأدواتها، في التحليل والتفسير والقراءة. إنّ المتأمل في قراءة محمد أركون للنص القرآني يجدها - كأني نسق معرفي - تحتوي على تضمينات أيدلوجية وأهداف تصبو إليها، وتستند على جملة من المرجعيّات تستمدّ منها المقولات الأساسية والمنطلقات المعرفية، وتحوز أدوات وآليات توظّفها في التفسير والتحليل، وكلّ ذلك يتم ضمن استراتيجية معرفية تركز على مناهج ونظريات. وسيُسلط البحث الضوء في مطلبه الأول على التعريف بمحمد أركون ومؤلفاته، ويهدف المطلب الثاني من البحث إلى بيان الآليات التحليلية التي وظّفها محمد أركون في فهمه للنص القرآني، وتكفل المطلب الثالث بعرض نماذج تطبيقية لهذه الآليات التحليلية على سور القرآن الكريم، مع الإشارة إلى الأثر الاستشراقي في فهم محمد أركون لماهية النص القرآني. ويكتسب هذا الموضوع أهميته من مركزية المجال المعرفي الذي اشتغل محمد أركون وهو النص القرآني. ويقع البحث في أربعة مطالب، أولها: التعريف بمحمد أركون ومشروعه النقدي، وثانيها: بيان الآليات المنهجية عند أركون في فهمه للنص القرآني، وثالثها: نماذج تطبيقية لتحليل محمد أركون للنص القرآني وفق المناهج الحديثة وأثر الاستشراق في ذلك. ثمّ تلا مطالب البحث خاتمة لأبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

المطلب الأول: التعريف بمحمد أركون ومشروعه النقدي:

وُلد محمد أركون عام ١٩٢٨م في أسرة فقيرة، بدأ بالدراسة الابتدائية وصولاً للجامعة في بلده الجزائر، ونال شهادة البكالوريوس من كلية الآداب في اللغة العربية، وفي عام ١٩٥٢م شدّ أركون الرحال للسوربون في باريس لمواصلة دراسته العليا، فدرّس ودرّس فيها وأصبح أستاذاً في عدّة جامعات ومعاهد أوروبية إلى أن توفي عام ٢٠١٠م^(١).

وأثناء تواجده في فرنسا حضر دروساً في الفلسفة، وعلم الاجتماع، وقدم أطروحته بعنوان (نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي)^(٢).

مؤلفاته:

له عدّة مؤلفات أبرزها: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، قضايا في نقد العقل الديني^(٣).

مشروعه:

قام أركون بتقديم مشروعه النقدي لإعادة قراءة النص القرآني بالاعتماد على مناهج العلوم الإنسانية، وهو ما أسماه الإسلاميات التطبيقية، مع استثمار لبعض الأصول المنهجية التي طرحها فلاسفة الحداثة الغربية، والمستشرقين، وبعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة.

طبّق محمد أركون المناهج الحديثة في فهم القرآن الكريم، واعتمد على مناهج متعدّدة، قسم منها يختص بعلوم الإنسان، وقسم آخر بدراسة الأديان، وقسم ثالث يختص بدراسة النصوص الدينية.

ويمكن أن نلخص مشروع محمد أركون في توجّهين:

الأول: العمل على «تأريخ النص القرآني من جهة تكوينه وجمعه وتدوينه، والهدف من ذلك التشكيك في صحته، ونزع قداسته، ثم المطالبة بإعادة تشكيله وفق النتائج التي توصل إليها النقد الفيلولوجي واللسانيات الحديثة.

الثاني: إعادة قراءة القرآن الكريم وذلك بإخضاعه لمناهج العلوم الإنسانية الحديثة»^(٤).

هذا التوجه المنهجي عند أركون نجده هدفاً أساسياً في مشروع المستشرقين عند دراستهم للقرآن الكريم. إن مشروع المستشرقين يمكن أن نفهمه من خلال ما قاله المستشرق كلود جيليو^(٥) «إن تطور الدراسات القرآنية بالغرب منذ منتصف القرن العشرين تحقق بفعل تأثير التقدم الملحوظ في مجال الدراسات الإنجيلية ونظريات النقد الأدبي ... ويمكننا أن نميز بين توجهين رئيسين في هذه الدراسات:

الأول: يشتغل على تأريخ النص القرآني من حيث تكوينه وجمعه وتدوينه.

الثاني: يهتم بإعادة فهم القرآن انطلاقاً من الوسائل التي توفرها العلوم الإنسانية»^(٦).

ونلاحظ مما تقدم التشابه الكبير الواضح بين هدي المشروعين، على الرغم من محاولة أركون تجاوز المنهج الفيلولوجي للمستشرقين، من خلال نقد ما أسماه الإسلاميات الكلاسيكية، وقدم الإسلاميات التطبيقية كبديل لها.

فأركون استفاد أولاً من المنهج الفلولوجي، ثم حاول تجاوزه بالاعتماد على مناهج العلوم الإنسانية.

لقد تلقف أركون فكرة تطبيق منهج الفيلولوجيا على لفظة (كلالة) من المستشرق الأمريكي دافيد باورس.

لقد صرح أركون بذلك بقوله: «لقد فعلت كما فعل باورس، حيث عرضت عليه هذه الآية غير المشكلة على الناطقين بالعربية أي الذين يجيدون الإعراب والعربية ولم يقرؤوا هذه الآية فاكتشف الشيء المدهش الآتي: إن أولئك الذين حفظوا القرآن عن ظهر قلب يتلون الآية كما هي التي قد اعتمدت بعد طول نقاش من قبل

التفسير الكلاسيكي، ثم فرضت في المصحف الرسمي منذ الطبري على الأقل، ولكن أولئك الذين لا يحفظون عن ظهر قلب ويخضعون فقط للكفاءة القواعدية واللغوية يختارون دائماً القراءات الأخرى»^(٧). نجد أن أركون رجح القراءة الشاذة على المتواترة من خلال استعمال المنهج الفيلولوجي، وذهب أركون إلى ما ذهب إليه المستشرق باورس من تقديم القراءة الشاذة على المتواترة^(٨).

المطلب الثاني: الآليات المنهجية لفهم النص القرآني عند محمد أركون:

لقد حدّد أركون منذ البدء هدف مشروعه باستكشاف الآليات التي يتشكّل بها الخطاب القرآني حتى يمكن من خلالها فهم بنية النصّ القرآني، ثم الدخول في المستوى التحليلي الدلالي.

ويجب التنبيه إلى أنّ «مشروع أركون لإعادة تفسير القرآن أو قراءته ظلّ يتراوح بين مختلف النظريات والمناهج فقد دعا إلى الأخذ بالبنوية ثم انتقل إلى اللسانيات ثم السيميائيات ثم انتقل إلى علم الأناسة أو الأنثروبولوجيا، وأحياناً يدعو إلى النظر في القرآن اعتماداً على سديم من المناهج المتعدّدة»^(٩).

وعلى الرغم من أنّ أركون قام بنقد المنهجية الاستشراقية في فهم الخطاب القرآني والتي تأخذ بالمنحى الفيلولوجي إلا أنّه لا يستغني عن هذا المنهج بحسب مقتضيات الفهم التي يتطلبها البحث، يقول في ذلك: «فأمام مجمل عبارات الإيمان ونصوصه، فإنّ التحريّ الأولي الذي يفرض نفسه منهجياً وإبستمولوجياً... هو التحريّ التاريخي الذي يمزج بين الأداة الفيلولوجية والألسنية والنفسيّة والاجتماعيّة والسيميائية والانتولوجيّة السوسيولوجيّة والانثربولوجيّة لفهم النواة الصلبة للاعتقاد الإسلامي وتفكيكها من الداخل»^(١٠). وبحسب رأي أركون فبما أنّ الظاهرة القرآنية ظاهرة تاريخية فيجب إعادة قراءة النصّ القرآني وفق المنظور التاريخي^(١١).

في «بداية القرن التاسع عشر اهتم العلماء بدراسة أصل اللغة ونشأتها وكان لعلماء الانثربولوجيا وبخاصّة أصحاب الاتجاه التاريخي والتطوريّ السابق في ذلك بقصد التعرف على الأصول الأولى لكلّ الأشياء

وبخاصة اللغة، ولكن المدرسة البنيوية الفرنسية فتحت باباً جديداً للاهتمام باللغويات حين اعتبرت دراسة اللغة هي المدخل الأساسي الذي يمكن أن تقوم عليه نظرياتها الأنثروبولوجية والأدبية والفلسفية»^(١٢). إن «اللغة عند أركون عبارة عن بنيات مستقرة ومتغيرة في نفس الوقت، حيث أنها في تركيبها وصياغاتها تتعلق بالفكر، من حيث هو جملة أفكار تفرزه ويفرزها، تشكّله ويشكلها، كما تتعلق بالعقل الذي أبدع هذه اللغة وتطوّر في كنفها والمفروض أن تتطوّر في كنفه أيضاً»^(١٣). فالهدف جعل النص القرآني نصاً لغوياً لا يختلف عن النصوص البشرية، وتتم معاملته وفق المناهج والآليات الحديثة.

من هذين النصين المتقدمين يمكن أن نقول إن أركون ارتكز على آليتين أو منهجين أساسيين، هما: المنهج الألسني السيميائي والمنهج التاريخي الأنثروبولوجي، وبيانها الآتي:

١. مناهج اللسانيات والسيميائيات:

تعرّف اللسانيات بأنها علم يدرس: «اللغة الإنسانية دراسة علمية تقوم على الوصف ومعاينة الواقع بعيداً عن النزعات التعليمية والأحكام المعيارية»^(١٤). ويمكن القول: إن اللسانيات هي في المحصلة نتائج ونظريات تمثّل بمجموعها أدوات بحث وآليات تحليل^(١٥).

يقول أركون: «لقد شرعت في تطبيق إشكاليات ومناهج اللسانيات والسيميائيات لتحليل الخطاب القرآني منذ أوائل السبعينات من القرن الماضي»^(١٦) إذ قام بتطبيقهما على سورتي الفاتحة والكهف.

يهدف أركون من توظيف السيميائية والألسنية إلى فهم اللحظة اللغوية التي تبلور فيها النص القرآني.

يقول أركون: إنّي أحاول أن أرى كيف يشغل النص القرآني وكيف يولّد المعنى^(١٧).

وسبب اختياره للتحليل السيميائي لأنه «يقدم لنا فرصة ذهبية لكي نمارس تدريباً منهجياً ممتازاً يهدف إلى فهم كل المستويات التي تشكّل المعنى أو يتولّد من خلالها»^(١٨).

فهو يستعين بالسيمائية لكشف هدفين^(١٩):

أولاً: تأريخية اللغة القرآنية.

ثانياً: إظهار الكيفية التي يمكن الحصول على المعنى الجديد من خلالها.

فأركون يعتقد أنه وفق المقاربة السيمائية يمكن العودة إلى الأصول التي تشكّل من خلالها الخطاب القرآني، وكذلك يمكن فهم مكوناته وعباراته بصورة حديثة معاصرة تتجاوز النمط القديم، ويتمّ ذلك بالمزاوجة بين السيمائية والألسنية، إذ يقوم فهم النصّ وتأويله على الأطر الألسنية التي تشمل «علم السيميائيات، وعلم المعاني، وعلم الدلالات ... وكلّها علوم متقاربة ومتداخلة، ويصعب التمييز بينها أحياناً»^(٢٠).

وعلّل أركون سبب اختياره للتحليل الألسني كنقطة انطلاق لفهم النصّ القرآني؛ بأنّه يمثل مرحلة منهجية مهمّة قبل القيام بأي تفسير أو تأويل للنصّ^(٢١)، وتكمن أهميّتها «إنّ هذه المنهجية تذكر بالمشروطية اللغوية للنصّ، بما في ذلك نصّ الوحي، فهو مكتوب بلغة بشرية معيّنة، وخاضع لإكراهاتها النحوية والصرفية واللفظية والبلاغية كما أنّه خاضع للإكراهات السوسiolوجية والثقافية للبيئة التي ظهر فيها»^(٢٢). نجد أنّ الألسنية لها أهميّة كبرى عند أركون، لأنّه إذا أراد أن يتقن قراءة أي نصّ وجب عليه تفكيكه ألسنياً لكي يعرف كيفية تشكّله.

ويمكن أن نقول: إنّ الدراسة السيمائية الألسنية تنظر للنصّ القرآني كنصّ لغويّ متكوّن من جمل وكلمات بعيداً عن القداسة، وهو ما أراده أركون عند تطبيقه لهما.

٢. منهج النّقد التاريخي والأنثربولوجي

عبّر أركون عن تبنيّه للمنح التاريخي في أكثر من مناسبة^(٢٣)، وطُبّق هذا المنهج لأول مرّة في الغرب، إذ قام الغربيّون بتطبيقه على النصوص المسيحية.

إنَّ المطالعة في كتب الحداثيين تبين لنا مرادهم من منهج النقد التاريخي، يقول أحد الحداثيين: «فحينما يُقال النقد التاريخي يُراد به عادة خمسة ضروب من النقد: نقد الوثيقة التاريخية التي بين أيدينا، والنقد الأدبي لهذه الوثيقة التاريخية، ونقد المضامين المدرجة في النص التاريخي، ونقد ذلك النص شكلياً، ونقد المؤلف أو نقد مبدع النص»^(٢٤).

فالخطوة الأولى لأصحاب هذا المنهج هو البحث عن درجة اعتبار هذا الكتاب المراد تطبيق هذا المنهج عليه، وإلى أي قرن ينتمي هذا الكتاب؟

وثاني تلك الخطوات هي البحث عن مصدر محتويات الكتاب ومدى صحة نقلها.

وثالث تلك الخطوات البحث عن صحة المضامين والأفكار الواردة في الكتاب.

ورابع خطوة هي نقد الأسلوب، والخطوة الأخيرة هي نقد مؤلف الكتاب، إذ لا يمكن فهم النص دون معرفة صاحبه وهذه الخطوات - بحسب نظر الحداثيين - هي منهج فهم لأي نص، وكانت بمثابة أصول لفهم لنصوص الكتاب المقدس في الغرب^(٢٥).

وعندما يتحدّث أركون عن النقد التاريخي فهو لا يستبعد النصوص الدينية بل يعتبرها الأولى بالنقد؛ لأنَّ القرآن حادثة تاريخية يجب أن تُفهم بحسب تسلسلها الزمني^(٢٦)، فهو يوظف التاريخ كآلية لفهم النص القرآني، حتى أصبحت التاريخية أساساً لفهم النص القرآني عند أركون وغيره من الحداثيين، وتترتب عنها أسس أخرى^(٢٧).

إنَّ التاريخية أصبحت منطلقاً لربط البحث في فهم النص القرآني بتاريخ الأديان وعلم الاجتماع والتحليل النفسي والأنثروبولوجيا الدينية.

تكمن أهمية هذا المنهج عند أركون لأنَّ النقد التاريخي للنص القرآني يحاول إعادة قصة تشكّل القرآن الكريم^(٢٨)، ومن ثمَّ فهو يُعتبر المنهج الأخطر والأكثر حساسية في مجال فهم النص القرآني.

يؤكد أركون على أنَّ المنهجية الأنثروبولوجية لا تهتم بالوقائع والأسماء والأحداث التي تحصل في وضوح النهار، وإنما تهتم بالجوانب الغامضة والمخفية من التاريخ المقارن للأديان، والثقافات والحضارات، إنها تهتم بالوظائف الرمزية وعمليات الإبداع المجازي، والأسطورة، والمخاتلة، والأدلجة، والتقديس والتعالي^(٢٩). إنَّ النقد التاريخي في مفهوم أركون لا يُسلم بأي معطى ديني سابق على النص يفهم النص من خلاله، وإنما يتضح النص ويفهم من خلال إخضاعه لحركة التاريخ والاجتماع، فالواقع سابق على النص، والنص خاضع لهذا الواقع، ويعتقد أركون أنَّ النقد التاريخي هو الكفيل بإخراج النصوص من السياقات الأيديولوجية التي سجت النص وحبسته في القراءة الأحادية^(٣٠).

إضافة لما تقدّم نجد أنَّ أركون وظّف مجموعة مفاهيم «لزعزعة القنوات مثل: مفهوم الأسطورة، إنتاج المعنى، وغيرها من المفاهيم التي يرى أركون ضرورة إدخالها وتوظيفها كآليات قرائية، خاصة أنها صارت متداولة في مجال العلوم الإنسانية»^(٣١).

وعلى أية حال، نجد أركون يبيّن أولوية المناهج التي وظّفها في فهم النص القرآني، يقول في هذا الصدد: «إنَّ التحليل الألسني - اللغوي - له مرتبة الأولوية وخاصة عندما يتعلق الأمر بالنصوص القديمة ... بعدئذٍ يجيء دور التحليل التاريخي والاجتماعي والأنثروبولوجي لإضاءة النص والكشف عن مشروطيته التاريخية»^(٣٢).

ويمكن أن نلخص خطوات أركون التحليلية للنص القرآني في عدّة مستويات^(٣٣):

الأول: التحليل اللغوي الألسني والسميائي، وهما يبحثان عن المعاني اللغوية وغير اللغوية.

الثاني: التحليل التاريخي، إذ يساهم في تحديد منشأ الحقيقة ورباطها.

الثالث: التحليل الاجتماعي: لأنّه انعكاس لما يجري من صراعات داخل الجماعات.

الرابع: التحليل الأنثروبولوجي: لأنّه يدخل في مقارنة الثقافات البشرية بعضها ببعض.

الخامس: التحليل الفلسفي: لأنه يبحث عن علاقة الحقيقة بالكائن الماورائي للذات البشرية. السادس: التحليل اللاهوتي التأويلي: لأن فيه محاربة لكل انغلاق على اليقينيات الثابتة، وكل أنواع التبجيل. ويعتقد أركون أن من الضروري أن تأتي القراءة التأويلية بعد القراءات السابقة ويجب أن تستند إلى نتائجهما^(٣٤).

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية لتحليل محمد أركون للنص القرآني:

وفق المناهج الحديثة وأثر الاستشراق في ذلك على الرغم من تعدد القراءات التي قدمها الحداثيون للنص القرآني ودعوتهم لتوظيف المناهج المعاصرة في فهمه إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقدموا تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، بل ظلوا يقدمون المشاريع النظرية ويتقفلون بين مختلف المناهج، ومنهم محمد أركون. إنَّ المنتبِع لأركون في مشروعه النقدي يجد سيطرة المناهج والأدوات على الجانب التحليلي للنص القرآني، ولعلَّ السبب في وجود الكثافة المنهجية على حساب الجانب التطبيقي أمران «أولهما: ظهور نتائج تفكيكية صادمة للوعي الديني وثانيها: الحذر من محدودية النتائج التحليلية نفسها إزاء التوقعات والآفاق المنهجية المعلنة»^(٣٥)، فنجد أنَّ هناك محدودية في الدراسة التطبيقية. وعلى الرغم من محدودية الجانب التطبيقي عند أركون إلا أنه قام بدراسة جزئية تحليلية لنماذج لنصوص قرآنية منها: دراسة سورة الفاتحة، وسورة التوبة، وسورة الكهف. واستند في دراسته لسورة الفاتحة على المنهج الألسني، أمَّا في سورة التوبة فاعتمد على المنهج الأنثروبولوجي، وفي تحليل سورة الكهف ذهب باتجاه المنجز الاستشراقي في هذا المجال، وتفصيل ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: التحليل الألسني لسورة الفاتحة

طبّق محمد أركون في سورة الفاتحة ما سمّاه بروتوكولاً ألسنياً نقدياً^(٣٦)، واتّخذ مسار أركون مراحل ثلاث هي: طبيعة الشيء المقروء، ومرحلة التطبيق الألسني، ومرحلة العلاقة النقدية^(٣٧). المرحلة الأولى: مرحلة تحديد الشيء المقروء أو مرحلة المفهوم قبل أن يبدأ أركون بتطبيق المنهج الألسني أشار إلى أنّ هذا المنهج لم يكتمل وما زال يتطوّر، ولذا فهو لم يعتمد على مدرسة لسانية محدّدة^(٣٨)، ثم بيّن مسألة البنية الأسطورية للقرآن، وقسّم سورة الفاتحة إلى ثلاثة بروتوكولات هي^(٣٩):

١. بروتوكول القراءة الطقسية الشعائرية: وهي القراءة التي تتكرّر سبعة عشر مرة في الصلاة.
٢. بروتوكول القراءة التفسيرية: وتشمل التراث التفسيري الذي كتبه المفسّرون حول سورة الفاتحة، وهذه كلّها -بنظره- ينبغي أن تخضع لتحري طويل وصعب.
٣. البروتوكول الألسني النقدي: وهذه القراءة غاية أركون، إذ يحاول فيها بيان القيم اللغوية للنص. ثم بيّن أركون مراده من النصّ القرآني وفرّق بينه وبين الخطاب القرآني، وهذه المرحلة الأولى مرحلة المفهوم يمكن تجاوزها، إذ تبين فيما سبق مفهوم النصّ القرآني عند أركون، ويجدر بنا الانتقال إلى مرحلة التطبيق الألسني التحليلي مباشرة.

المرحلة الثانية: مرحلة التطبيق الألسني

وهي الخطوة الأهم، واشتملت القراءة الأركونية لسورة الفاتحة وفق المنهج الألسني على سبعة مستويات تناولها باختصار، وهي^(٤٠):

١. النطق: يقول أركون: «تستعمل عملية النطق بعض العناصر اللغوية التي ندعوها بصائغات الخطاب أو مشكلاته التي تصوغه على هيئة معينة وهكذا ندرس بشكل متتابع المحدّدات والمعرّفات (من أدوات

تعريف وتتكير وصفات وضمان)، ثم النظام الفعلي، ثم النظام الاسمي، ثم البنى النحوية، وأخيراً النظم والإيقاع إن لم نقل الأوزان والعروض»^(٤١).

٢. أدوات التعريف:

يفتح أركون تحليله بإثارة مشكلة بارزة هي ظاهرة التعريف والتتكير، إذ لاحظ سيطرتها على سورة الفاتحة سواء بالآلف واللام أو بواسطة التكملة التعريفية^(٤٢)، وأشار إلى أن للمعرفات وظيفتين: الأولى: التعميم في الزمان والمكان، وهذا أخذه من الفخر الرازي، والوظيفة الثانية: هي التصنيف في التراكيب اللغوية^(٤٣). وأشار أركون إلى أن سبب تسمية الفاتحة بهذا الاسم هو لوجودها في رأس المصحف، أما ترتيبها فهي في المرتبة (٤٦)، واعتبر هذا الترتيب متأخراً، فتعريف (إله) غير متبلور كثيراً في النصوص، وظلّ مبهماً من السورة الأولى وإلى السورة الخامسة والأربعين^(٤٤)، وفي هذه النقطة يبرز أثر المنهج الاستشراقي إذ «يستعيد أركون اختصاص الفيلولوجي مستنداً إلى الترتيب التاريخي لسور القرآن ... وبذلك فقد نقص منهجياً المنطلق اللساني الذي قطعه على نفسه بتحليل الفاتحة ضمن وضعها النبوي في النص القرآني»^(٤٥)، فهو يصرّ على إعادة تشكّل المصحف، مشيداً بمنجزات المستشرق (نولدكه) والمستشرق (بلاشير).

٣. الضمان:

ومع أن الضمان تعدّ أحد المحدّات إلا أن أركون أفرد لها مستوى خاصاً بها، ووضع أركون الضمان في قسمين: إذ يقول: إنّ هناك عدّة ضمانات ففي (أنعمت - واهدنا) الضمير فاعل نحوي يدلّ على منعم المخلوقين، على عكس الضمانات المجهولة في الصيغ الأخرى^(٤٦).

٤. الأفعال:

يعبر أركون عن الأفعال بأنها تدلّ على التوتر وهي جهد يبذله العامل رقم (٢) ليصل إلى العامل رقم (١) وديمومة الجهد تكون لسد الفجوة بين متكلم يعترف بصفته خادماً ومخاطب بصفته الشريك الأعلى^(٤٧).

٥. الأسماء:

وقسم الأسماء على قسمين: الأول الأسماء الأصلية، «وهي اسم، أل - لاه، حمد، رب، يوم، دين، صراط»^(٤٨)، والقسم الثاني هما اسمي الفاعل (مالك - ضالين) واسم المفعول (المغضوب عليهم)^(٤٩). ولم يفصل الكلام فيها بل أشار لها بإشارات بسيطة، فأين التحليل الألسني؟!

٦. البنيات النحوية:

قام أركون بتقسيم سورة الفاتحة إلى أربع وحدات هي: (بسم الله، والحمد لله) و (الرحمن الرحيم، رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين) و (إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم) و (صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين)^(٥٠)، وذكر أنّ الهدف من هذا التقسيم أنّه «يتيح لنا أن نوضح أفضل ذلك الدور النحوي المركزي للفاعل المقصود بكلمة الله أو بعملية القول: الله، وكذلك يتيح لنا أن نفهم كيفية التوسع المعنوي لهذا الفاعل نفسه»^(٥١).

٧. النظم والإيقاع:

وبهذا المستوى تنتهي رحلة أركون مع القراءة الألسنية، وحاول في أسطر قليلة أن يبين أهمية النظم الألسنية، ويقول: «سأكتفي بالتنبيه على الملاحظة البسيطة التالية، وهي وجود قافلة (إيم) متناوبة مع قافلة (إين) في سورة الفاتحة»^(٥٢).

المرحلة الثالثة: مرحلة العلاقة النقدية.

من خلال العلاقة النقدية حاول أركون إعادة ضبط العلاقة بين النص والمتلقي باستشكال ظاهرة الوحي وربطها بالتأريخية.

الأثر الاستشراقي: يمكن أن نجد الحضور الاستشراقي في فهم أركون لسورة الفاتحة - إضافة لما تقدّم في (التعريفات) من بحثه الفيلولوجي - من خلال مناقشته لترتيب نزول الفاتحة ضمن سور القرآن، فعلى الرغم من وجود اختلاف بين المسلمين في نزولها بمكة أو بالمدينة أو نصفها بمكة ونصفها بالمدينة فإننا نجد أركون لم يبحث فيها، بل تبنى الترتيب الذي وضعه المستشرق الألماني نولدكه.

ثانياً: التحليل الأنثروبولوجي لسورة التوبة

إنّ سبب اختيار أركون للمنهج التاريخي الأنثروبولوجي وتطبيقه على سورة التوبة يعود إلى أمرين^(٥٣):
الأول: موضوعها الاجتماعي والسياسي.

الثاني: تجسيدها لمشروعية العنف وعلاقته بالتقديس كمعطى أنثروبولوجي.

وأيضاً فقد «فكّ الآية الخامسة من سورة التوبة باستخدام المنهجية السيميائية والألسنية التي تسعى إلى كشف العلاقة بين الله والنبي والمؤمنين، إذ يهدف من خلال ذلك إلى تحرير المسلم من هيمنة القراءة المغلقة، لكي يفهم العلاقات الداخلية للنص بكل حيادية وموضوعية، فيكتشف عند ذاك العلاقة التي تربط النص بالتاريخ»^(٥٤).

واستند في تحليل سورة التوبة إلى المنهج الأنثروبولوجي والألسني، ولم يلحظ البحث تأثراً بمناهج المستشرقين.

ثالثاً: تحليل سورة الكهف

قام أركون بممارسته التحليلية لسورة الكهف بالاعتماد على المنهج الفيلولوجي، معتمداً على النتائج التي توصّل إليها المستشرق الألماني نولدكه.

قام أركون بعرض قصة أصحاب الكهف، وحاول أن يتجاوز في تفكيكه المنهج الفيلولوجي الذي اعتمده إلى المدخل الأنثروبولوجي التاريخي، وفي هذا السياق أبدى إعجابه بالمستشرق الفرنسي ماسينون (١٨٨٣-١٩٦٢م)^(٥٥).

قسّم أركون سورة الكهف إلى وحدات سردية، لا يجمع بينهما موضوع واحد، فجمع الآيات من الأولى إلى الثامنة في وحدة، ومن التاسعة إلى الخامسة والعشرين في وحدة، ومن الرابعة والعشرين إلى التاسعة والخمسين في وحدة^(٥٦).

الوحدة الأولى: مؤلفة من ثماني آيات، وهي لا تشكل مقدمة للسورة من وجهة نظر البحث التاريخي لأن:
١. موضوعها يختلف، إذ تتكلم عن عناوين عامة.

٢. نزولها يختلف، إذ أنها نزلت بالمدينة، بينما بقيّة آيات السورة نزلت بمكة.
وهنا نلاحظ أركون يستند في هذا التحليل إلى المنهج الفيلولوجي التاريخي الاستشراقي للسورة، ولذلك يتبنى أركون النتائج التي أقرتها مدرسة نولدكة.

لقد قام بلاشير بترجمة سورة الكهف لأنها نالت أهمية كبيرة في الإسلام، وبحسب كلامه فهي تتلى في المساجد يوم الجمعة والتفسير خصصها كسورة مكية مع إضافات مدنية وليس من السهل إيجاد الربط بين البداية والنهاية للربط بين الأجزاء السردية المقومة للهيكل الكلي^(٥٧)، وهذا الرأي وافقه عليه أركون إذ زعم أن الآيات الثماني الأولى «تقوي وحدة النص الكلي للقرآن أكثر مما تتمفصل مع النص الجزئي»^(٥٨)، ونلاحظ التشابه بين النظر إلى الآيات ككل ومحاولة إيجاد مقدّمة وخاتمة للسورة، إلى أن وصل أركون إلى نتيجة تفيد بعدم وجود رابط بين أجزاء السورة.



نتائج البحث:

١. خلاص البحث إلى أن خطوات أركون التحليلية للنص القرآني تمثلت في عدة مستويات، هي:
الأول: التحليل اللغوي الألسني والسميائي.
الثاني: التحليل التاريخي.
الثالث: التحليل الاجتماعي.
الرابع: التحليل الأنثروبولوجي.
الخامس: التحليل الفلسفي.
السادس: التحليل اللاهوتي التأويلي.
٢. في الجانب التطبيقي التحليلي لسورة الفاتحة عند (أركون) لاحظ البحث وجود أثراً استشراقياً، إذ استعان أركون بالمنهج الفيلولوجي في دراسة الترتيب التاريخي لسور القرآن، وأصرّ على إعادة تشكّل المصحف وفق رؤية المستشرق الألماني (نولدكة)، والمستشرق الفرنسي (بلاشير).
٣. في الجانب التطبيقي التحليلي لسورة التوبة عند (أركون) لم يجد البحث أثراً استشراقياً، بل استند إلى المنهج الأنثروبولوجي والمنهج الألسني.
٤. في الجانب التطبيقي التحليلي لسورة الكهف عند (أركون) كان الأثر الاستشراقي واضحاً، إذ استند في تقسيمه لآيات السورة إلى النتائج التي أقرتها مدرسة المستشرق الألماني (نولدكة).

الهوامش:

- (١) ظ: أبي نادر، نائلة، التراث والمنهج بين أركون والجابري، ٤٥١-٤٥٦. وظ: هالبير، رون، العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب، ص ٦٣. (مقابلة مع محمد أركون).
- (٢) ظ: أبي نادر، نائلة، التراث والمنهج بين أركون والجابري، ص ٤٥٦.
- (٣) ظ: السعدي، أحمد فاضل، القراءة الأركونية للقرآن دراسة نقدية، ص ٤٦-٤٧.
- (٤) بو عمامة، نجدي، النص في القرآن بين تأويل القدامى والمحدثين دراسة تحليلية، اطروحة دكتوراه، إشراف: محمد عباس، جامعة أبي بكر بلقايد / كلية الآداب واللغات، (٢٠١٤م)، ص ٤٣٤.
- (٥) مستشرق فرنسي معاصر، ولد عام ١٩٤٠م، كانت رسالته للماجستير والدكتوراه عن تفسير الطبري، وأشرف على عدد من طلبة الدراسات العليا في فرنسا والعالم الإسلامي، وتفرغ للدراسات القرآنية. (ظ: موقع ملتقى أهل التفسير عبد الرزاق هرماس / <http://vb.tafsir.net/tafsir>).
- (٦) جيليو، كلود، مبحث الدراسات المعاصرة النشرة الفرنسية، ص ٥٤٧.
- (٧) أركون، محمد، من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، ص ٣٦.
- (٨) ظ: علي، عمر زهير، القراءة الحداثية المعاصرة للقرآن الكريم وأثر الاستشراق فيها، ص ١٩٠-١٩٣.
- (٩) علوش، محمد، مناهج تحليل الخطاب القرآني في الفكر العربي المعاصر، ص ١٤١-١٤٢.
- (١٠) أركون، محمد، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ص ٣٣٣.
- (١١) ظ: أركون، محمد، الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ص ٧١.
- (١٢) بن عاشوراء، صليحة، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة في تحليله دراسة نقدية، بحث مقدّم إلى الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، مجلة الأثر، ص ٢٢٣.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.
- (١٤) قدور، أحمد، مبادئ اللسانيات العامة، جامعة حلب، (سوريا - ٢٠٠٦م)، ص ١٥.

- (١٥) للاطلاع على تاريخ اللسانيات ومناهجها ومدارسها ومستوياتها التحليلية، ظ: السراقبي وليد محمد، الألسنية مفهومها، مبادئها المعرفية، ومدارسها، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى، (العراق - ٢٠١٩م).
- (١٦) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ٥.
- (١٧) ظ: المصدر نفسه، ص ١٠.
- (١٨) أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ٦.
- (١٩) مجموعة مؤلفين، محمد أركون دراسة النظريات ونقدها، ص ٣٠٩.
- (٢٠) مجموعة مؤلفين، محمد أركون دراسة النظريات ونقدها، ص ٣٦.
- (٢١) ظ: أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ٥-١٠.
- (٢٢) الأندلسي، محمد، قراءات في مشروع محمد أركون الفكري، ص ١١٥.
- (٢٣) ظ: أركون، محمد، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص ٢٣١.
- (٢٤) شبستري، محمد مجتهد، الهرمنيوطيقا الكتاب والسنة، ترجمة: حيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، الطبعة الأولى، (بغداد - ٢٠١٣م)، ص ١٤٩.
- (٢٥) ظ: المصدر نفسه، ص ١٤٩-١٥٠.
- (٢٦) ظ: خنوس، نور الدين، الخلفية الاستشراقية لمنهج النقد التاريخي للنص الديني عند محمد أركون، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٢١، (الجزائر - ٢٠١٥)، ص ١٥٦.
- (٢٧) ظ: المصدر نفسه، ص ٢٣٣.
- (٢٨) كيجل، مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ص ٢٦٠.
- (٢٩) قضايا في نقد العقل الديني، ص ٥.
- (٣٠) ظ: نقاز، الدكتور إسماعيل، مناهج التأويل في الفكر الأصولي دراسة تحليلية ونقدية مقارنة لمناهج التأويلية المعاصر، ص ٢٦٢. وظ: مصطفى، كيجل، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ص ٢٤٣.
- (٣١) العمري، مرزوق، إشكالية تأريخية النص الديني، ص ١٥٧.
- (٣٢) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١٣.

- (٣٣) ظ: أبي نادر، نائلة، التراث والمنهج بين أركون والجابري، ص ١١٠.
- (٣٤) أركون، محمد، الإسلام والطريقة والحداثة، ص ٢٥.
- (٣٥) قرأش، محمد، الخطاب القرآني وإشكاليات القراءة الحداثيّة، ص ٣٥٨.
- (٣٦) ظ: أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٢١.
- (٣٧) ظ: المصدر نفسه، ص ١١٢.
- (٣٨) ظ: المصدر نفسه، ص ١١٣.
- (٣٩) ظ: المصدر نفسه، ص ١١٦-١٢٠.
- (٤٠) ظ: أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٢٥.
- (٤١) المصدر نفسه، ص ١٢٥.
- (٤٢) ظ: مداقين، هشام، المقاربة السيميائية في تحليل الخطاب القرآني عند محمد أركون -سورة الفاتحة أنموذجاً-، ص ٧١.
- (٤٣) ظ: عباس، حامد رجب، المقاربة الحداثيّة الأركونية للوحي، فاتحة الكتاب أنموذجاً، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد الثاني، (الجزائر - ٢٠١٧م)، ص ١٤.
- (٤٤) أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١١٧-١١٨.
- (٤٥) قرأش، محمد، الخطاب القرآني وإشكاليات القراءة الحداثيّة، ص ٤٥٧.
- (٤٦) ظ: أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٢٦-١٢٧.
- (٤٧) ظ: المصدر نفسه، ص ١٣٠.
- (٤٨) المصدر نفسه، ص ١٣١.
- (٤٩) ظ: المصدر نفسه، ص ١٣١.
- (٥٠) ظ: أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٣٣.
- (٥١) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
- (٥٢) أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٣٤.
- (٥٣) ظ: المصدر نفسه، ص ٥٠.

- (٥٤) أبي نادر، نائلة، التراث والمنهج بين أركون والجابري، ص ١٠٨.
- (٥٥) مستشرق فرنسي، تنوعت أعماله في الدراسات الإسلامية، وكان شغله الشاغل في السنوات الأخيرة بأهل الكهف، إذ ألقى بحوثاً كثيرة عنهم في مؤتمرات المستشرقين، ونشر بحوثاً حول قصة أهل الكهف في مجلة الدراسات الإسلامية في أكثر من عدد. (ظ: حمدان، عبد الحميد صالح، طبقات المستشرقين، ص ١٩٣).
- (٥٦) ظ: أركون، محمد، من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٤٩.
- (٥٧) ظ: بلاشير، ريجيس، القرآن، نزوله تدوينه، ترجمته، تأثيره، ص ٣١٧.
- (٥٨) أركون، محمد، من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص ١٤٧.